الفصل الثامن عشر

التفكير فى فتح مصر

بينما كانت أسلحة المسلمين تنساح فى بلاد الفرس ، بإمرة الأحنف بن قيس ونُعَيْم بن مقرِّن وسُوَيد أخيه وعبد الله بن عبد الله بن عِتْبان وغيرهم من أمراء الجند ذوى المكانة والبأس كان عمرو بن العاص يتقدَّم بجنوده فى مصر ؛ يفتح مُدُنها ، ويُجْلى الروم عنها ويُديل دولتهم فيها . وقد بدأ عمرو مسيرته إلى مصر فى شهر ذى الحجّة للسنة الثامنة عشرة من الهجرة ، وتخطّى إلى أرضها فى مستهل السنة التاسعة عشرة ، ثم سار فى قتال أهلها وقتال الروم بها حَذِراً أول الأمر . فلما جاءته الأمداد من الخليفة طوَّعت له سرعة السير وكفلت له الغلبة والنصر .

وكانت مسيرة عمرو إلى مصر بإذن من عمر بن الخطاب . لكن عمر لم يأذن بهذا السير إلا بعد تردد طويل . فالمتواتر أن ابن العاص خاطب الخليفة فى غزو مصر حين فتحت بيت المقدس أبوابها ، وبعد أن صالح أمير المؤمنين أهلها فى السنة السادسة عشرة من الهجرة . ولعل عَمْراً قد ذكر فى حديثه يومئذ أن قائد الروم الأطربون انسحب بقوات الروم من فلسطين إلى وادى النيل ، فمن الخير تعقُّبه وهو منهزم قبل أن تتاح له فرصة التحصن فى بلاد وافرة الخصب عظيمة الثروة ؛ يستطيع أن يجد فى حصونها المنيعة وفى مِيرتها الوفيرة ، من وسائل الدفاع وأسباب المقاومة ، ما يُنْسِى هرقل هزيمته وفراره من المدينة المقدَّسة . ولعل عَمْراً ذكر كذلك فى حديثه ما تعجّ به مصر من خيرات ينال الروم أكثرها ولا يبقى للمصريين منها إلى القليل الذى يقيم أودهم ليعملوا فى أرضها المِعْطاء . ولعله أعاد هذه الأحاديث غير مرة على الخليفة ، وعززها بأن علاقات مصر بحكّامها من الروم ليست خيراً مما كانت علاقة العراق بحكامها من الفرس ؛ وأن النزاع المذهبى قد أثار على ضفاف النيل حفائظ المصريين وأضعف من حماستهم لحكامهم ، إن لم يدعُهم للتمرد عليهم . وهذه كلها عوامل تكفل للعرب الظفر بأعدائهم فى الوادى الخصيب . فإذا أضيف إليها ما استقرَّ فى نفوس الناس لذلك العهد من بأس المسلمين ومن أن الله معهم فلا غالب لهم ، لم يبق موضع للتردد فى غزو مصر ونشر لواء الإسلام فيها ،

ثم كان للمسلمين من ثراء مصر ومن خيراتها الوفيرة ما يضاعف حظّهم من نعيم الدنيا ، بقدر ما يضاعف الاستشهاد حين الجهاد حظهم من نعيم الآخرة .

سمع عمر هذه الأحاديث ومثلها غير مرة . وكان ينصت لها ويطيل التفكير فيها . فالإغراء بغزو مصر لمن استطاع غزوها قوىّ شديد . وأين منها العراق والشام ثروةً ونضرة ! وهل يحدِّث تاريخ فى بقاع الأرض بمثل ما يحدث تاريخها ، أو تنهض فى المَشْرقين آثار فى جلال آثارها ! لكن عمر كان يتردَّد كلما حُدُّث فى أمرها ، فلا يأذن لابن العاص فى غزوها . فلما انتهى بعد سنتين إلى الإذن بهذا الغزو وجد جماعةً من كبار الصحابة بالمدينة راغبةً عنه ، خاشية سوء مغبته ، تحاول حمله على الرجوع عنه ، وردّ ابن العاص عن السير إليه .

وقد تداولت عمر أسباب متلاحقة حملته على هذا التردد . وأول هذه الأسباب أن سياسته فى الفتح كانت إلى آخر السنة السابعة عشرة من الهجرة سياسة عربية بحتة ؛ فهو لم يكن يريد أن يتعدَّى العراق والشام بعد أن ضمَّهما إلى شبه الجزيرة ، وكان يرى أن يضمهما إليها لأن القبائل العربية التى نزحت إليها طوَّعت للَخميين والغسّانيين أن يُقيموا ملكاً عربيًّا خضع لنفوذ كسرى ولنفوذ قيصر ، ومن الحق أن يكون هذا الملك للعرب وحدهم ، يستقلون به ويكونون أصحاب السلطان فيه ، حتى يجتمع العرب فى وحدة تمتد من خليج عدن والمحيط الهندى إلى أقصى الشمال من بادية السماوة . ولذلك أبى على سـعد بن أبي وقّاص أن يتخطّى سهول العراق إلى جبل فارس ، وودّ لو أن بين السواد والجبل سداً من نار ، فلا يخلص الفرس إليه ولا يخلص هو إليهم . وقد ظل حريصاً على هذه السياسة حتى لم يكن للمسلمين من قتال الهرمزان مفر . فلما جمع الفرس لهم بعد ذلك بنهاوند وأظفر الله المسلمين بهم ، أمر عمر بالانسياح فى بلادهم ليُخرج يزدجرد منها ، وليقضى على كل خارج عليه فيها .

وسبب آخر حمل عمر على التردد فى فتح مصر . ذلك أن الشام لم تكن خضعت كلها لسلطان المسلمين إلى آخر السنة السادسة عشرة . وقد بقِي شمالها يناوئهم ولا يستقر لهم فيه أمر حتى قضى أبو عبيدة بن الجرَّاح وخالد بن الوليد على مقاومتهم ، وذلك حين بعث هرقل قوَّاته تحملها السفن من الإسكندرية إلى أنطاكية ، وحين خرج أهل الجزيرة يمِدُّونه ، ثم انتهى الأمر بهؤلاء وأولئك إلى الفرار . هذا ، ثم إن قَيْسارِيَّة ظلّت فى موقعها الحصين على شاطئ البحر تقاوم قوات المسلمين وتهدد مراكزهم بفلسطين إلى أن افتضّها

معاوية بن أبى سفيان . لم يكن لعمر ، وذلك كان شأن سورية وفلسطين إلى أخريات السنة السابعة عشرة من الهجرة أن يغامر بإرسال قواته من الشام لمواجهة الروم بمصر . أتراه يُقدم على هذه المغامرة إذا فتح الله عليه الشام ؟ كان يتردد فى هذا ، وكان يجد من عثمان بن عفّان ومن غيره من الصحابة المقيمين بالمدينة من يزيده دون الإقدام والمغامرة تردداً .

فلما خضعت الشام كلها طرأ سبب جديد أبقاه فى تردده ؛ فقد فشت المجاعة فى شبه الجزيرة وهددت أهلها بالفناء ، فشغلت عمر عن التفكير فيما سواها . وكيف يفكر فى غزو الروم بمصر والناس فى شبه الجزيرة جياع لا يصلحون مدداً لأى جند يواجه الروم أو يواجه الفرس ! . ولم تكد المجاعة تنقضى حتى فشا طاعون عَموَاس بفلسطين وامتدّ منها إلى الشام والبصرة ، فأزعج عمر والمسلمين جميعاً ، حتى لقد ساورتهم الخشية من انتقاض العراق والشام بهم ؛ ورجعة الفرس والروم للقضاء ثَمَّ على سلطانهم . وكان طبيعيًّا أن ينسى عمر فى أثناء المجاعة والطاعون كل ما حدَّثه به عمرو بن العاص عن مصر وأن ينصرف كل الانصراف عن التفكير فى غزوها .

ولزم ابن العاص الصمت فى أثناء هذه الحوادث فلم يخاطب عمر فى غزو مصر . لكن الأمل فى إقناع الخليفة عند سنوح الفرصة لهذا الفتح العظيم ظلّ مع ذلك ماثلا أمامه . ولما عادت شبه الجزيرة إلى مألوف حياتها ، وبرئت الشام من الوباء وجاء الخليفة إليها يصلح شئونها وينظّم جندها ، لقيه عمرو بالجابية وسار معه فى أرجاء البلاد وعاد يحدثه فى فتح مصر ويُدلى إليه بحجج جديدة حسبها تُزيل تردُّدَه . فلو أن المسلمين قنِعوا ، بعد الذى أصابهم من هول المجاعة والطاعون ، بالاستقرار فى البلاد التى فتحوها لظن أعداؤهم بهم الضعف ، ولأغراهم هذا الظن بمهاجمتهم . وهذا الأطربون بمصر قد جمع إليه الجند وأعدَّ للقتال العُدَّة ، فإذا لم يجد من يهاجمه خرج فى قواته إلى فلسطين يقاتل المسلمين . أليس الخير أن يفاجئه المسلمون فى مأمنه ؛ فالهجوم خير وسائل الدفاع ؟ ! وإذا تقدّمت قوات العرب لغزو مصر أيقن الروم أن المسلمين لا يزال بأسهم شديداً كما كان ، فهابوهم ووقفوا منهم موقف المدافع . بذلك تأمن الشام رجعتهم لغزوها . وكيف لهرقل أن ينقل الجند على السفن من مصر إلى أنطاكية أو غير أنطاكية والمسلمون يهاجمونه فى مصر نفسها ! فإذا فتح الله مصر يوماً للمسلمين وأورثهم إياها ، وذلك ما يؤمن ابن العاص به ، فذلك الفوز الذى لا فوز يعدله ؛ وإن تكافأت القوتان فطلب الروم الصلح ، أمِنَ المسلمون جانبهم فى الشام وفى جزيرة العراق ، وفى سائر الأرجاء

التى دانت من قبل بأسلحة أمير المؤمنين . ولا خوف من أن يهزم المسلمون فى مصر وأن تؤدّىَ هزيمتهم إلى كارثة تضيع ما كسبوا من ملك قيصر ، فقد أصبحت الشام كلها حصينة بقوات المسلمين المنتشرة فيها ، وبانضمام العرب من أهلها إلى بنى عمومتهم فى الدفاع عنها ، وباطمئنان غير العرب من أهلها إلى أن المسلمين خير من الروم حكماً ، وأكثر منهم عدلاً وإنصافاً .

سمع عمر إلى هذه الحجج وقلّبها فى نفسه فمالت به إلى مشاركة ابن العاص فى رأيه . وزاده ميلاً إلى هذه المشاركة ما رآه من إيمان عمرو بالقدرة على فتح مصر إيماناً مستنداً إلى منطق تتعذر معارضته . هذا إلى أن الإغراء بفتح مصر شديد ؛ فقد كان عمر وكان كثيرون من العرب فى عهده يعرفون الشيء الكثير عن مصر وثروتها ، وعن بَرَم أهلها بسلطان الروم وأساليب حكمهم . لذلك لم يرفض طلب عمرو ولكنه استمهله حتى يكتب إليه بعد عوده إلى المدينة . وأقام ابن العاص ينتظر هذا الكتاب ويدبّر فى أثناء انتظاره خُطّة السير إلى مصر .

كان عمر وكان كثيرون من العرب يعرفون الشيء الكثير عن مصر . ولم يكن علمهم بها مقصوراً على ما ينقله عنها من يذهبون فى تجارتهم إليها من أمثال عمرو بن العاص ، بل كان أوسع من ذلك مدًى وأكثر دقة وإحاطة . فبين مصر وبلاد العرب صلات ترجع إلى أقدم الحِقَب . ذلك أن مصر كانت دولة بحرية منذ عهد الفراعنة ، فكانت أساطيلها الحربية والتجارية تشقّ عُباب البحرين الأبيض والأحمر من أقدم عصور التاريخ . وكانت سفنٌ من هذه الأساطيل تذهب إلى الجنوب من بلاد العرب تحمل إليه التجارة وتجئ منه بمختلف السلع ، وفى مقدمتها العطور والروائح التى توضع فى حنوط الموميات . وكانت هذه السفن تسير وترسو من حيث تقع القُصَيْر اليوم ، ثم ينقل ماتجيء به إلى مصر فى طريق امتدّ فى عهد الأُسَر الفرعونية الأولى بين القصير على البحر الأحمر وقِفْط على ضِفّة النيل . وقد أثبت الأثريّون ما سجّلته نقوش الكَرْنَك وطائفة من المعابد المصرية من صور لهذه السفن المصرية وما تحمل من تجارة ، كما أثبتوا ما سجلته نقوش الدير البحرى من قيام الملكة الفرعونية (هاناسو) بشق طريق مِلاَحِيٍّ يصل النيل بالبحر الأحمر عند خليج السويس ماراً بالبحيرات المرّة . وفى هذا الطريق الملاحى كانت السفن تنتقل بين البحرين الأبيض والأحمر ، تحمل تجارة مصر والمغرب إلى الشرق ، وتحمل تجارة مصر والشرق إلى الغرب . فكانت مصر يومئذ ، أكثر مما هى اليوم ، مركز التجارة للعالم المعروف كله ، وكان تيسير الانتقال لهذه التجارة بعض ما يُوليه ملوكها أعظم العناية .

ولم تكن الأساطيل البحرية وحدها أداة هذه الصلات القديمة المتصلة على القرون بين مصر وبلاد العرب ، بل كان برزخ السويس أداة اتصال بينهما لم تنقطع فى عصر من العصور . وكان فى شبه جزيرة سيناء طريق عبّده المصريون القدماء إلى مناجم النحاس الواقعة بها ، وكان هذا الطريق يجرى فى شمال الحجاز حتى يتصل عند تَيماء بالطريق المؤدى إلى بابِل على شاطئ الفُرات . وكانت بابل وكان العراق كله تابعاً لمصر فى عصور مختلفة ؛ فكان هذا الطريق وسيلة الصلة بين البلدين فى التجارة كما كان سبباً لنشوب الحرب بينهما فى بعض العصور .

وكان هذا الطريق الممتد من سيناء فى شمال الحجاز يتصل كذلك بطريق القوافل المنحدر إلى مكة وإلى اليمن ، وفى هذا الطريق كان جانب كبير من تجارة مصر وبلاد البحر الأحمر ينقل إلى اليمن وفارس ، وإلى الهند وبلاد الشرق الأقصى ، كما كان جـــانب عظيم من تجارة اليمن وفارس والهند والشرق الأقصى ينقل إلى مصر وبلاد البحر الأبيض فى الطريق عينه ، فكان المصريون الذين يصحبون تجارتهم يجتازون بلاد العرب أثناء سير القوافل بها ، وكان العرب الذين ينقلون متاجر الشرق إلى مصر يدخلونها بقوافلهم ويقيمون بها ريثما يعودون منها بتجارة جديدة ، وكان ذلك يحدُث من أقدم العصور ، ثم ظل متصلا مع إلف الناس البحر ونقلهم التجارة فى السفن على مَتْنه .

ومؤرخو العصور القديمة يذكرون أن هذا الاتصال أدّى إلى استقرار عدد غير قليل من العرب ببوادى مصر منذ عهد الفراعنة ، وإلى استقرار جالية من المصريين عند واحة على طريق القوافل ، وأن هذه الجالية كانت النواة التى نشأت حولها مدينة يَثْرِب ، مدينة الرسول عليه الصلاة والسلام .

لم تكن صلة التجارة وحماية القوافل هى وحدها التى ربطت بين العرب والمصريين فى العصور القديمة ، بل ربطت بينهما كذلك صلة رحم إن نسيها أهل اليمن لم ينسها أهل الحجاز ، وما كان لأهل مكة بخاصة أن ينسوها . فإسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام أبو العرب ، و« هَاجَرُ » أمُّ إسماعيل مصرية صميمة . فقد ارتحل إبراهيم مع زوجه « سارَّة » من العراق إلى فلسطين ثم إلى مصر ، فأهدى إليه ملكها هَاجَرَ ، فولدت له إسماعيل . وغضبت سارة حين رأت إبراهيم يسوّى بينها وبين هاجر ، فأقسمت لا تساكنها ، فذهب إبراهيم بهاجر وابنها إلى بلاد العرب وأنزلهما بالوادى الذى تقوم مكة اليوم به . وتزوج إسماعيل فتاة ولوداً من جُرْهُم أعقبت له اثنى عشر ولداً هم آباء العرب المُستَعْرِبة . فهؤلاء العرب

ينتمون من ناحية خؤولتهم فى جُرْهُم إلى العرب أبناء يَعْرُب بن قحطان ، وينتمى أبوهم إسماعيل من ناحية خؤولته إلى مصر .

نزل إبراهيم مصر وانتقل بهاجر إلى بلاد العرب ، فربط بين الجنسين برابطة النسب لمائة وألفى سنة قبل مولد المسيح ، وأضاف بذلك صلةً جديدة إلى صلة التجارة القائمة بين الشعبين من أقدم الحِقَب . وبعد قرنين اثنين من هذا النسب نشأت بين الشعبين صلة سياسية تركت أثراً باقياً على التاريخ ؛ فملوك مصر الرُّعاة « الهكسوس » عرب نزحوا إلى فلسطين واستقروا بها . ثم ساروا منها إلى مصر فغزوها وأقاموا بها مُلكاً دام خمسة قرون متعاقبة ، من أوائل القرن المتمم العشرين إلى أواخر القرن الخامس عشر قبل الميلاد . وقد ظل ملكهم ممتداً فى وادى النيل كل هذة القرون ، ثم أجلاهم المصريون عنه ، فخرجوا من مصر وقد بلغ عددهم قرابة ربع المليون . ويذكر بعض المؤرخين أن هؤلاء الهكسوس هم بنو إسرائيل ، وأن قصة يوسف الصِّدِّيق حدثت فى عهدهم .

ظلّت هذه الصلات فى التجارة والسياسة والنسب متصلة بين مصر وبلاد العرب ، تضعُف حيناً وتقوى حيناً آخر . وقد أضعفها استيلاء الروم على مصر زمناً ، ثم عادت إلى مثل ما كانت عليه . ذلك أن العرب ظلوا يقومون برحلة الصيف إلى الشام ، ثم كان منهم من ينحدر من طريق القوافل عند أَيْلَة (العقبة) إلى مصر ، وكان أكثرهم يسيرون إلى الشام ، فإذا بلغوها وقضوا وطراً من تجارتهم فيها توجهوا إلى مصر . وذلك ما كان عمرو ابن العاص يصنعه فى الجاهلية وفى الإسلام .

ولم يكن طريق البحر أقل إدامة للصلة بين مصر وبلاد العرب من طريق القوافل ، فقد كانت السفن عليها الملاّحون المصريون ترسو بجُدَّة وغيرها من فُرُضات بلاد العرب ، تبادلها التجارة ويأخذ الملاّحون منها ما يحتاجون إليه من أقوات . وأدّت هذه الصِّلات إلى نزول بعض المصريين بلاد العرب وإقامتهم بها ، كما كان بعض العرب الذين يذهبون فى رحلة الصيف ينزلون مصر ويقيمون بواديها . وكُتُب السيرة تذكر أن السيل طغى على بناء الكعبة فتهدّم لسنوات قبل مبعث النبى العربى ، وأن البحر رمى إذ ذاك بسفينة قادمة من مصر مملوكة لتاجر رومى اسمه « باقوم » فحطمها فابتاع أهل مكة أخشابها لإدخالها فى بناء الكعبة ، واستعانوا بقبطىٍّ يقيم بمكة ويعرف نجر الخشب وتسويته ، فوافقهم على أن يعمل لهم وأن يعاونه « باقوم » . ولم يكن هذا القبطى المصرى الوحيد المقيم بالبلد الحرام .

كان العرب بحكم هذه الصلات يعرفون الشيء الكثير عن مصر . وقد تحدّث القرآن

عنها فى مواضع كثيرة منه ، فزاد المسلمون بها علماً . لقد كانوا يعرفون عن نهرها العظيم ، وأرضها المعطاء وزروعها الناضرة ، وخيراتها الوفيرة ما يذكره لهم أهلوهم الذين يتّجرون بها . فلما أورد القرآن قصص يوسف وموسى زادهم بحديث أهلهم علماً وتثبيتاً . يقول تعالى فى سورة الدُّخان تعقيباً على ما كان من غرق فرعون وقومه : (كَمْ تركُوا مِنْ جَنَّات وَعُيُونٍ ، وَزُرُوعٍ وَمَقامٍ كرِيمٍ ، وَنَعْمَةٍ كانُوا فِيها فاكِهِين) . ويقول فى سورة الدخان : (وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِى قَوْمِهِ قالَ يَاقوْمِ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهذِهِ الأَنْهارُ تجْرِى مِنْ تحتى أَفلَا تُبْصِرُون) ويقول على لسان بنى إسرائيل : (وَإِذْ قُلْتُمْ يَامُوسَى لنْ نصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ فادْعُ لنا رَبَّكَ يُخْرِجْ لنا مِمَّا تُنْبِتُ الأَرْضُ مِنْ بَقْلِها وَقِثَّائِها وَفُومِها وَعَدَسِها وبَصَلِها ، قالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِى هُوَ أَدْنَى بِالذى هُوَ خيْرٌ اهْبِطُوا مِصْراً فإِنَ لكُمْ مَّا سَأَلْتُمْ) . ويذكر فى غير موضع صروح مصر وآثارها ويشير إلى تاريخها وعبادات أهلها . وهذه الآيات ومثلها مما ورد فى وصف مصر إنما ورد حين قص القرآن حديث إبراهيم ويوسف وموسى والأنبياء ، فأثار فى نفوس المسلمين صورة مصر الطبيعية ، كما أثار فى نفوسهم صورة من تاريخها منذ أقدم العهود إلى عهدهم .

أعاد حديث موسى إلى ذاكرتهم صورة من حياة ابن عِمْران منذ مولده ، وبعد أن أمر فرعون بقتل كل مولود ذكر فى مملكته استجابةً لمن فسروا له أضغاث أحلامه . فقد ألقت أمّ موسى رضيعها فى النيل ، فالتقطه آل فرعون وعنُوا به ، فلما شبَّ موسى نصر رجلا من قومه بنى إسرائيل على مصرى ، فوكز المصرىَّ فقضى عليه ، فقتل نفساً بغير حق ، وفرَّ موسى مخافة المصريين ونزل مَدْيَنَ فتزوج ابنة شيخها وآجره عشرة حِجَجٍ عاد بعدها من طريق الطور يريد مصر ، فناداه ربه من جانب الوادى الأيمن وألقى عليه رسالته . وذهب موسى وأخوه هارون إلى فرعون وملَئه يدعوانهم إلى الله ، فاستكبر فرعون ونادى فى قومه : (أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَى) ، وقال لوزيره : (يَاهامانُ ابْنِ لِى صَرْحاً لعَلِّى أَبْلغُ الأَسْبابَ . أَسْبابَ السَّمواتِ فأَطَّلِعَ إِلىَ إِلهِ مُوسَى وإِنِّى لأَظُنُّه كاذِباً) . وأظهر موسى معجزاته ، فدعا فرعونُ السحرة ، فلما رأوا عصا موسى تلقف ما صنعوا آمنوا به . واتَّبع بنو إسرائيل موسى ، فرأى فرعون فى بقائهم إثارة للفساد فى الأرض ، فأراد القضاء عليهم . وفر موسى وبنو إسرائيل يريـدون أرض المَعاد ، فأتبعهم فرعون وجنوده فأغرقه الله فى اليمِّ ، فهلك تاركاً وراءه جنـات وعيوناً وزروعاً ومَقاماً كريماً ونعْمةً كان هو وقومه فيها فاكهين .

وذكر العرب بحديث يوسف ما بمصر من نَعْمة وترف كان لحكامها منهما الحظ

الأوفى . فقد ابتاع عزيز مصر يوسف ، فأنزلته امرأته منزلة الكرامة عسى أن ينفعهم أو يتخذوه ولداً . فلما ترعرع وبدت فتنة جماله جُنَّتْ به امرأة العزيز غراماً . (وَقَالَ نِسْوَةٌ فِى الْمَدِينَةِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ ، قَدْ شَغَفَهَا حُبّاً إِنَّا لَنَرَاهَا فِى ضَلَالٍ مُبِينٍ . فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكأً وآتت كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ سِكِّيناً وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ ، فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلهِ مَا هذا بَشَراً إِنْ هَذَا إِلاَّ مَلَكٌ كَرِيمٌ . قَالَتْ فَذٰلِكُنَّ الذى لُمْتُنَّنِى فِيهِ وَلَقَدْ رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِنْ لَمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُوناً مِنَ الصَّاغِرِينَ) . وأصرَّ يوسف على إبائه فسُجن ، فلم ير النسوة اللاتى قطّعن أيديهن ما يدفعهن إلى لوم المرأة المفتونة به على ما فعلت ، ولبث فى السجن بضع سنين ، ثم خرج بعد أن فسر رؤيا الملك : سبع بقرات سِمان يأكلهن سبْع عِجَاف وسبعَ سنْبلاتٍ خضر وأُخَرَ يابسات ، فقال : (تزرَعُون سَبْعَ سِنِينَ دَأَباً فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فى سُنْبُلِهِ إِلاَّ قَلِيلاً مِمَا تأْكُلُون . ثُمَّ يَأْتِى مِنْ بَعْدِ ذٰلِك سَبعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلاَّ قَلِيلاً مِمَّا تُحْصِنُونَ . ثُمَّ يَأْتِى مِنْ بَعْدِ ذٰلِكَ عامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعصِرون) . وجعله الملك على خزائن الأرض ، فأحسن تدبيرها حتى عاد إليها النماء والخِصْب كأحسن ما كانت ، وحتى عادت جنَّة ناضرة تنبت أرضها من بقلها وقثّائها وفومها وعدسها وبصلها ما شاء الله أن تنبت .

فى هذا الحديث عن يوسف وعن موسى صورة من طبيعة مصر وثروتها ، ومن عبادات أهلها وعقائدهم ، ومن عاداتهم وأخلاقهم ، ومن تاريخهم وصورة الحكم فيهم فى العصور الأولى . وإنما أوجزنا فيما تقدَّم بعض ما ذكره القرآن عن مصر . وطبيعيٌّ أن يتتبع المسلمون الأولون كل ما جاء فيه عنها ، وأن يثير تَتَبُّعه فى نفوسهم كل ما يذكرونه من أمرها . وكان اليهود والنصارى يجادلونهم فى أمر موسى وعيسى والأنبياء وما ورد فى القرآن عنهم ، فيزيدهم الجدال علماً ، ويزيد علمهم بمصر فسحة وعمقاً .

ولم تكن معرفة المسلمين مصر مقصورة على ما كان من أمرها فى العصور الأولى ، بل كانوا يعرفون من أمرها فى زمانهم أكثر مما يعرفونه من تاريخها . ذلك أن العرب كانوا يتابعون ما يجرى بين فارس والروم بعناية بالغة ، حتى لقد انقسموا فى ذلك أحزاباً يتشيَّع فريق منهم لفارس وفريق للروم . فلما كان العقد الثانى من القرن السابع وانتصر الفرس على الروم وفتحوا مصر والشام ، كان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد بُعِث ، وكان خصومه يتشيَّعون للفرس ويذكرون أن الروم هزموا لأنهم أهل كتاب كالمسلمين .

وتشيع المسلمون للروم ، واشتد تشيعهم لهم حين نزل قوله تعالى : (غُلِبَتِ الرُّومُ . فِي أَدْنَي الأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غلبِهِمْ سَيَغلِبُون . فى بِضْعِ سنين) . وأقام الفريقان يتابعان ما يجرى بين الدولتين العظيمتين ، ويعلّقان بما يعنّ لهما على ما يبلغهما من أنباء الوقائع التى تشتبكان فيها .

وقد اتصل القتال بين الدولتين فى مصر زمناً غير قليل ذلك لأن الفرس دخلوها فى سنة ٦١٦ لميلاد المسيح ، وأقاموا بها تسع سنوات حتى أجلاهم هِرَقْل عنها وعن الشام . وفى أثناء هذه السنوات كان المسلمون يمدون أبصارهم إلى تلك الأرجاء ، مؤمنين بأن الروم سيغلبون الفرس لامحالة ، كما أوحى الله إلى نبيه . فلما تمت كلمة ربك وارتد الفرس إلى بلادهم كان رسول الله قد هاجر إلى المدينة ، وكانت سراياه تسير منها إلى ما حولها . فلما استتب له الأمر ، بعث رسله إلى كِسرَى وإلى قَيْصَر وإلى ملوك الحيرة وغَسَّان وإلى أمراء الجنوب من شبه الجزيرة وإلى حاكم مصر يدعوهم جميعاً إلى الإسلام .

وقد يلفت النظر أن المُقَوْقِس حاكم مصر كان أجمل الملوك والأمراء ردًّا على رسالة النبيّ وأكثرهم مجاملة له . وقد بعث مع حاطب بن أبِي بَلْتَعة رسول النبي إليه بكتاب يشير فيه إلى أنه يعتقد أن نبيًّا سيظهر ، ولكنه ظنّ أنه سيظهر فى الشام ، ويذكر أنه استقبل رسولَه بما يجب له من إكرام ، وأنه بعث بهدية : جاريتين وبغلة بيضاء وحمار ومقدار من المال وبعض خيرات مصر(١) . وقد اصطفى محمد مارية القبطية إحدى الجاريتين لنفسه ، فولدت له إبراهيم ، فرفعها إلى مقام زوجاته ، ثم كان يقول : « استوصُوا بالقِبْط خيراً فإن لهم ذِمَّةً ورَحِماً » .

---

(١) فصل ابن عبد الحكم فى « فتوح مصر وأخبارها » سفارة حاطب إلى المقوقس ، وأورد نص الكتاب الذى حمله حاطب فيا يلى : « بسم الله الرحمن الرحيم . من محمد رسول الله إلى المقوقس عظيم القبط ، سلام على من اتبع الهدى ! أما بعد فإني أدعوك بدعاية الإسلام فاسلم تسلم ، وأسلم يؤتك الله أجرك مرتين . (ياأهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله . فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون) . ومما رواه ابن عبد الحكم أن المقوقس خلا بحاطب ليلة وسأله عن صفة النبي فلما ذكرها حاطب له قال : « قد كنت أعلم أن نبياً قد بقى ، وقد كنت أظن أن مخرجه الشام ، وهناك كانت تخرج الأنبياء من قبله ، فأراه قد خرج فى العرب أرض جهد وبؤس ، والقبط لا تطاوعنى فى اتباعه ، ولا أحب أن يعلم بمحاورتى إياك ، وسيظهر على البلاد وينزل أصحابه من بعد بساحتنا هذه حتى يظهروا على ماههنا ، وأنا لا أذكر للقبط من ذلك حرفاً ، فارجع إلى صاحبك » . فلما أصبح دعا كاتباً يكتب بالعربية فكتب : لمحمد بن عبد الله من المقوقس عظيم القبط سلام . أما بعد فقد قرأت كتابك وفهمت ماذكرت وماتدعو إليه . وقد علمت أن نبياً قد بقى ، وقد كنت أظن أنه يخرج بالشام . وقد أكرمت رسولك وبعثت إليك بجاريتين لهما مكان فى القبط عظيم وبكسوة ، وأهديت إليك بغلة لتركبها والسلام » .

واختيار النبي حاطب بن أبي بلتعة لأداء رسالته إلى المقوقس ، واختياره عمرو بن العاص فى الوقت نفسه رسولاً إلى ملكى عُمَان ، يشهد بأن حاطباً كان كثير التردد على مصر فى التجارة ، ويبعث على الظن بأنه كان يعرف لغة المصريين . ولو أن عمرو بن العاص كان أهدى بهذه البلاد وأكثر علماً بلغة أهلها لآثره النبي على حاطب ولاختاره رسولاً إلى المقوقس .

ولا ريب فى أن المسلمين قد ازدادوا معرفةً بمصر وعلماً بما فيها بعد أن اختار رسول الله الرفيق الأعلى ، وبعد أن فتحوا العراق والشام واستقرُّوا بهما واتصلوا بأهلهما مدى السنوات التى انقضت قبل أن يفاتح عمرو بن العاص أمير المؤمنين فى فتح مصر. فقد ظل الفرس حُكّاماً لمصر عشر سنوات قبل أن يُجْليهم هِرقل عنها ، فعرفوا من مواقعها وحصونها وثروتها وحضارتها ما أفضوا به إلى العرب الذين اتصلوا بهم من بعد . وكانت الصلة بين مصر والشام وثيقة ؛ إذ كانتا جميعاً فى حكم الروم ، وإذ كان أهل الشام يذهبون إلى مصر يبادلون أهلها التجارة . وقد عرف المسلمون منهم ما يعرفونه هم عن مصر. لذلك كانت صورة مصر واضحة فى ذهن عمر ، وفى ذهن ابن العاص ، وفى ذهن كثيرين حتى بدأ عمرو يفاتح الخليفة فى فتحها .

وكانت هذه الصورة مغرية أيما إغراء ؛ فقد كان خصب مصر ووفرة إنتاجها مضرب المثل فى العالم كله ؛ وكان ما يفيض عن حاجات أهلها من القمح والشعير وغيرهما من أنواع الغلال يغذِّى الإمبراطورية الرومية . ثم إنها كان بها غير الغلال أرزاق لا تحصى ، وكانت ثروتها من الأحجار والمعادن فوق الحصر. وقد كانت ، مع خضوعها لسلطان الروم وما كان من اجتياح الفرس أرضها فى قتالهم قيصر أعظم مركز فى العالم اجتمع فيه العلم والفن والصناعة والزراعة والتجارة اجتماع نماء وازدهار يأخذ بالنظر ، ويستهوى اللب . وكانت عاصمتها الإسكندرية قد احتفظت بكل ما كان لها يوم أنشأها الإسكندر المقدوني من بهاء وجمال ، وأضافت إليه فى أثناء القرون العشرة التى انقضت منذ إنشائها ما زادها جلالا وعظمة ، وما جذب الناس من أقطار الأرض للمقام بها . فكان سكانها يزيدون على المليون ، وكانوا يمثلون الأجناس والعقائد المختلفة المعروفة لذلك العهد . فلم يكن المصريون الخُلّص منهم يزيدون على نصفهم ، وكان النصف الآخر من الروم واليونان والفينيقيين والعرب وغيرهم ؛ ومن هؤلاء من كانوا يدينون باليهودية ، ومنهم من كانوا يدينون بالمسيحية ، وكلهم يعيشون فى جو المدينة الساحر مطمئنين إلى رخائها وجلال

عظمتها . وأية عظمة وأى جلال ! كانت منارتها الكبرى ، منارة فاروس إحدى عجائب الدنيا السبع ، وكان بها من المعابد الضخمة وساحات الفن الفسيحة والقصور الفخمة والمسارح والحمامات العامة ما لا يقع تحت حصر ، وكان ذلك كله يبهر السائح القادم إليها من أعظم المدن رقيًّا وحضارة . وكانت أكبر أسواق العالم وأكثر ثغوره ازدحاماً بالحركة . وكانت بها تجارة عظيمة فى القمح والكتان والورق والزجاج ، وغير ذلك من مزروعات مصر ومصنوعاتها ، ثم كانت تحمل إليها مقادير كبيرة من الذهب والعاج مجلوبة من بلاد النوبة وإثيوبيا ، ومن أنواع البهار والحرير والفضة والجواهر وغيرها آتية من بحار الهند والصين إلى البحر الأحمر منتقلة إلى النيل فى القناة التى تصل ما بين البحرين ، جارية بعد ذلك فوق النهر العظيم إلى الإسكندرية .

لم يكن عجباً وتجارة الإسكندرية بهذه الضخامة ، أن تكون ميناؤها أكبر موانئ العالم ، وأن تكون صناعة السفن أكبر صناعاتها . كانت ميناؤها تتسع لاثنى عشر ألف سفينة من مختلف الأحجام ، وكان بناء السفن فيها متصلا لا ينقطع فى يوم من أيام العام . وكان الخشب اللازم لبناء السفن يُحْمَل إليها من الشام ، وكانت مصر تنبت نوعاً متيناً من الكتّان اسمه « الدقس » تصنع منه حبال السفن وتنسج قلاعها . وكانت السفن الحربية تصنع بالإسكندرية كما كانت تبنى بها السفن التجارية .

وكان يبنى بها من السفن الحربية نوعان : أحدهما ضخم تحمل السفينة منه ألف رجل والآخر خفيف تحمل السفينة منه مائة رجل . وكان النوعان يجهّزان بآلات تقذف « النار الإغريقية » المهلكة المؤلفة من مواد سريعة الالتهاب شديدة الاشتعال لا يمكن إطفاؤها ، ذات قوة على النسف والتحريق ، تُحدث تخريباً كبيراً ، وتُلقى فى النفوس الرعب . وكان فى بعض السفن الضخمة صروح عالية فوق ظهرها ، فإذا حاذت إحداها أسوار مدينة محصنة كان جند السفينة مع المدافعين عن المدينة على عُلوّ سواء ، فأمكنهم أن يثبوا من الصروح إلى الأسوار ، أو يقيموا جسراً بين الصرح والأسوار يعبرون عليه .

أما السفن التجارية التى كانت تصنع بالإسكندرية فكان بعضها يبلغ من الضخامة أن يحمل أربعة آلاف إردب من القمح . وكان الكثير منها يسير بالتجارة فى البحر الأحمر ، ويرسو فى فُرضات شبه الجزيرة ، فينقل بما يحمل من التجارة الناتجة فى مصر أو المجلوبة إليها صورة من حياة هذا الشعب المصرىّ الدائم الدأب والجِدّ إلى عرب الحجاز

وعرب اليمن حضرهم وبدوهم .

لم يكن النشاط التجارى والصناعى كل ما امتازت به الإسكندرية على غيرها من مدن العالم ! فقد كانت ، منذ أنشأها الإسكندر الأكبر واستقر بها البطالسة إلى أن فتحها العرب ، مركز النشاط العقلى والعلمى فى العالم كله . صحيح أن هذا النشاط كان يخبو أحياناً ويضطرم أحياناً أخرى ، وأن بعض المدن كانت تشارك فيه الإسكندرية فى بعض الحِقَب ، وبخاصة أيام حكم الرومان مصر ، لكن العاصمة المصرية ظلّت دائماً مرجع هذا النشاط ، وظل أبناؤها من العلماء والشعراء والكتّاب وأرباب الفن يوجهون الحياة العقلية فى العالم عشرة قرون كاملة . إليهم يرجع الفضل فى نشر الثقافة الإغريقية التى سبقت إنشاء مدينتهم ، وفى إقامة مذاهب جديدة يَمُتُّ بعضها بأوثق الصلة إلى مذاهب الإغريق ، ويخالف بعضها هذه المذاهب ، ويستقل بعضها بنفسه كل الاستقلال . ولم يكن ذلك عجباً وقد كانت الإسكندرية ملجأ العلماء ورجال الفن والأدب من كل أمة وملّة ، وكان بها من المكتبات العامة ومن مناهل العلم ومدارسه مالم يكن لغيرها .

وقد سمت مدرسة الطب فى الإسكندرية إلى مكانة لم تَسْمُ إليها مدرسة أخرى فى العالم كله ؛ فكان الأطباء الذين يتخرجون فيها مشهوداً لهم ، وكانوا موضع الإكبار حيثما نزلوا من بقاع الأرض . كذلك ازدهرت فيها دراسات الفقه والإلهيات ازدهاراً بدا واضحاً فى المذاهب الفلسفية التى اختصت بها مدرسة الإسكندرية ، والتى حاولت التوفيق بين المسيحية فى أساسها الروحى ومذاهب الإغريق الفلسفية المستندة إلى منطق العقل وحده . وكان ازدهار الفقه لذلك العهد بعض ما قويت به النزعة الدينية التى أقامت مصر وأقعدتها ، ووقفتها فى وجه الروم وقفة بلغت قبيل الفتح العربىّ حدّ العنف . وكان الفلك والرياضة وتقويم البلدان والهندسة من فروع العلوم التى تُدرّس فى معاهدها . وقد وضع علماؤها مؤلّفات لم يبق منها إلا ما ذكره المؤرخون من بعدُعنها . هذا إلى تعلق الكتّاب والأدباء بالشعر تعلقاً جعلهم يفتنّون فيه . وجعل العلماء أنفسهم ينظمون العلم شعراً .

لا عجب ، وذلك شأن العلوم والآداب ، أن تزدهر الفنون وأن يزداد أهلها براعة ، وأن تظهر آثارها فى نشاط أهل الإسكندرية وفى حياة مدينتهم . وقد اشتهرت مصر منذ عهود الفراعنة الأولين ببراعة بنيها فى هندسة العِمارة ، فكان طبيعيًا أن تجمع عمارة

هذا العهد المسيحى بين جلال المعابد القديمة وزخرف العمارة الإغريقية ، وأن تُجَمَّل مباني الإسكندرية بالمرمر المصرى البديع ونقوش الفسيفساء ذات الألوان ، والفسيفساء الزجاجية . والحق أن تنظيم الإسكندرية وعمارتها كانا من الروعة بما يقف النظر ويبهر الفؤاد : فقط خُطَّت على صورة رقعة الشِّطْرَنْج : ثمانية طرق تجرى بين الغرب والشرق ، تقاطعها ثمانية أخرى تجرى من الشمال إلى الجنوب ، والطريقان المتوسطان منها فسيحان تقوم على جانبيهما أفخم مبانى المدينة . وكانت أسوار المدينة وحصونها وقصورها وكنائسها مشيدة من مرمر ناصع البياض يعشى النظر دونه ، فكان ظاهر أكثرها يُغَطَّى نهاراً بنسيج أخضر من صناعة مصر .

هذه صورة من عاصمة مصر لذلك العهد . وهى تشهد بترف أهلها وسموّ مكانتهم فى الحضارة ، وبأنها اجتمع لها من ألوان الثقافة ومتاع العقل مالم يجتمع لغيرها من عواصم العالم يومئذ . فقد كانت تتجاور فيها المذاهب الفلسفية والدينية المتناقضة جوار كفاح كلامىّ لم يبلغ حدّ العنف فى غير العهود التى حاول الأباطرة فيها أن يفرضوا مذهبهم على أهل مصر. أما فى غير هذه العهود فكان التراشق الجدلىّ أقصى ما بلغه النضال بين أصحاب هذه المذاهب .كان الأبيقوريُّون يدعون إلى المتاع بالحياة والنهل من موردها السائغ ، لا يُنسيهم المتاع أن الحياة سخرية مستطابة ونعيم قتّال . وكان الرِّواقيون يسخرون من الأبيقوريين ويدعون للزهد فى المتاع لأنه يتلف العقل ويفسد طهارة النفس . وكان المتطهرون من المسيحيين ينأون بجانبهم عن مغريات المدينة ، ويلتمسون فى عزلة الصحراء القريبة منها سكينة نفوسهم وطمأنينة قلوبهم . أما فى عهود الاضطهاد الدينى فكان الأمر يختلف ، وكثيراً ماكانت تصبح الإسكندرية الرافلة فى حلل النعيم مسرحاً لاضطرابات تفسد جوَّها المرح ، وتشيع فيها القلق والفوضى .

وكان الاضطهاد الدينى منتشراً فى مصر وفى عاصمتها حين كان ابن العاص يحاول إقناع الخليفة بفتحها . ذلك أن هرقل لم يلبث ، حين انتصر على الفرس وأعلى الصليب فى بيت المقدس . وحين رأى الأنظار تُشَدُّ إليه من أرجاء العالم المسيحىّ كله لينقذ المسيحية مما ألمّ بها ، أن فكر فى توحيد المذاهب المسيحية وصوغها مذهباً واحداً . وقد تحدّث فى هذا الأمر إلى بطارقة الشام وبُزَنطية ممن يمثلون شتى المذاهب المسيحية ، ثم دعاهم إلى مجمع « خلقدونية » فأقروا مذهباً مسيحيًّا موحداً . عند ذلك جعل بطركة الدين فى الإسكندرية لقيرس أسْقُفِّ فاسيس فى بلاد القوقاز ، وطلب إليه أن يحمل أهل مصر

على اعتناق المذهب الرسمى « الموحد » . غير أنه لم يَفْطِنْ إلى أن مذهبه الذى حاول به التوفيق قد تأباه كنيسة مصر ، ولم يعرف أن أهل مصر إذا أبوا ذلك المذهب كان شر الطرق إلى ضمهم للجماعة أن يرغمهم عليه ويقذف به فى حلوقهم ، إذ قد كرهوا مرارة مذاقه منذ ذاقوه . وعلى أى حال كانت هذه خُطّته فى مصر والشام ، وكان من رأى ذلك العصر أن أمور الدين والعقيدة مما ينبغى للدولة أن تقوم عليه ويصدر الناس فيه عن أمرها (١) .

كان بنيامين (٢) كبير أساقفة القبط بمصر إذ ذاك ، وكان حبيباً للناس عزيزاً عليهم ، وكان رجلاً ذكيًّا محبًّا للخير والفضل قاسياً على القسوس والشمامسة من أهل العناد والكبر ، شديد التعصب للمذهب المسيحى الذى يؤمن المصريون به ، مذهب اليعاقبة الذى يقول : « إن الطبيعة الإلهية والبشرية امتزجتا فى المسيح فصارتا فيه طبيعة واحدة ؛ فكان عند التجسد ذا طبيعتين ، أما بعده فصار ذا طبيعة واحدة » . وهذا المذهب يخالف مذهب الملكانية الذى يقول : « إن الابن مولود من الأب قبل الدهور غير مخلوق ، وهو جوهره ونوره . والابن اتحد بالإنسان المأخوذ من مريم ، فصارا واحداً وهو المسيح » . فلما قدم قيرس الإسكندرية فى خريف سنة ٦٣١ ، ليحمل أهل مصر على اعتناق المذهب الرسمى ، فرّ بنيامين من الإسكندرية ، وسار متخذاً من الأديار المنتشرة بالصحراء ملجأه حتى بلغ قوص ، وهناك أقام بدَير صغير قريب منها قائم فى الصحراء تحميه الجبال فلا يسهل الوصول إليه .

كان فرار بنيامين نذيراً أزعج القبط وأفزع أهل الدين منهم ، فرأوا فى دعوة قيرس إلى المذهب الجديد كفراً لا كفر بعده . ولم يُغْنِ عن قيرس تظاهره أول ما نزل مصر بأنه جاء مسالماً ، وأنه لا يفرض المذهب بالقوة بل يدعو إليه ويحاول الإقناع به ؛ فقد تنكر له القبط اليعاقبة وتنكّر له الملكانيون على سواء ، ورأوا جميعاً فى دعوته بدعة هى الضلالة بعينها . وازداد الناس نفوراً من هذه البدعة حين جاء صُفْرنيوس من بيت المقدس إلى مصر ، وقام على رأس الملكانيين فيها . فلما جمع قيرس مجلساً دينيًّا بالإسكندرية ودعا أعضاءه لبحث ما يدعوهم إليه أظهر صفرنيوس أنه يحاول أن يثنى قيرس عن عزمه ، بالحجة تارة وبالتوسل أخرى . ورأى قيرس نفور الشعب

---

(١) فتح العرب لمصر لألفريد بتلر ، ترجمة فريد أبو حديد ؛ ص : ١٥٥ .

(٢) بعض المؤرخين من العرب يسمونه أبو ميامين .

من دعوته وعداوته لها ، فلجأ إلى البطش والتعذيب يُكره الناس بهما على الدخول فيما يريدهم عليه .

لجأ قيرس إلى البطش والتعذيب ، ولج فى « الاضطهاد الأعظم » عشر سنوات حُسوماً . وكان التعذيب وحشيًّا لم يعرف عصر من العصور مثله . عُذِّب أخو الأسقف بنيامين بأن أوقدت له المشاعل وسلِّطت على جسمه ، فأخذ يحترق حتى سال دهنه من جانبيه إلى الأرض ، فلما لم يتزعزع إيمانه خُلِعت أسنانه ووضع فى كيس مملوء بالرمل وحمل إلى الشاطئ ، ثم عرضت عليه الحياة إذا آمن بالمذهب الجديد فأبي . وتكرر العرض وتكرر الإباء ثلاث مرات ألقى العابد بعدها فى البحر فمات غرقاً . وتلقى الأب صمويل فى ديره بالصحراء كتاباً يحمله إليه أمير فرقة عِدّتها مائة جندى يدعوه إلى المذهب الجديد ، فطوى صمويل الكتاب وقال : « ليس لنا من رئيس إلا بنيامين ، ولعنة الله على ذلك الكتاب الكفَّار الذى جاء من الإمبراطور الرومانيِ ، ولعنة الله على مجمع خلقدونية وكل من آمن بما أقره » . وضرِب صمويل حتى ظُن أنه مات ، لكنه عاد إلى نفسه وإلى محاربة قيرس . وأمر قيرس فجيء به مكتوف اليدين من خِلاَف وفى عنقه طوق من الحديد ، فسار مستبشراً وهو يقول : « سأمنح إن شاء الله اليوم الشهادة بأن يُسْفَكَ دمى فى سبيل المسيح » . ثم جعل يسب قيرس لايخشى شيئاً . ودخل قيرس فأمر جنده أن يضربوه حتى سال دمه ، ثم قال له : « صمويل أيها الزاهد الشقىّ ، من ذا أقامك رئيساً للدير ، وأمرك أن تعلِّم الرهبان أن يسبونى ومذهبي ؟ » وأجابه العابد : إن البر فى طاعة الله وطاعة وليّه البطريق بنيامين لا فى طاعتك والدخول فى مذهبك الشيطانيِ ، ياسلالة الطاغوت ! ويا أيها المسيح الدَّجَّال ! » . وأمر قيرس جنده بضرب صمويل على فمه وقال له : « لقد غرَّك ياصمويل أن رهبانك يُجِلُّونك ويعلون من شأن زهدك ، ولهذا تجرّأت وقويت نفسُك ولكنى سأشعرك أثر سِبابك للعظماء إذ سوَّلت لك نفسك ألا تؤدى ما ينبغى عليك أن تؤديه لعظيم رجال الدين وكبير جُباة المال فى أرض مصر » . وأجاب العابد : « لقد كان إبليس من قبلُ كبيراً على الملائكة ، ولكن كبره وكفره فسقا به عن أمر ربه . وهكذا أنت أيها الخادعِ الخلقيدونيِ ؛ فإن مذهبك مذموم ، وإنك أشد لعنة من الشيطان وجنوده » . وضاق قيرس بكلام العابد ذرعاً فأومأ إلى الجند أن يقتلوه ؛ واستنقذه حاكم الفيوم من يديه فأمر به أن يُنْفَى من الأرض .

هاتان الصورتان من تعذيب أخى بنيامين وتعذيب صمويل تصفان بطش قيرس فى الاضطهاد الأعظم . كان الذين يأبون الدخول فى المذهب الجديد يُجْلدون ويعذَّبون ويلْقَوْن فى غيابات السجون ويلاقون الموت . وكان أثر هذا الاضطهاد أن ازداد الناس كراهيةً لهرقل ولقيرس ، حتى لقد هاجر كثيرون من مصر إلى بلاد النوبة وإلى أثيوبيا فراراً إلى الله بدينهم . أما الذين لم يستطيعوا الفرار ولم يُطيقوا العذاب ففُتنوا عن دينهم كارهين ، فأظهر كثيرون منهم غير ما يُبطنون . وقد خُدِع غير هؤلاء وأولئك بسلطان المال والجاه ، فارتضوا المذهب الجديد ، لاحبًّا فيه ولا إيماناً به ، بل حرصاً على ما يُيَسِّره لهم من مطامع هذه الحياة الدنيا . على أن مالقيه الشعب فى هذه السنوات العشر قد زرع فى قلبه لبزنطية ولقيصر ولقيرس كراهية امتزجت بحياته وجرت مجرى الدم فى شرايينه .

أفكان التعصّب الدينى هو وحده الذى دفع شعب مصر للنفور من المذهب الجديد كل هذا النفور ، ولمحاربته هذه الحرب العوان ؟ قد لا يخطئ من لا يجيب عن هذا السؤال بالإيجاب ؟ فالتوجه الدينى أصيل فى الشعب المصرى بحكم طبيعته . كذلك كان شأنه فى عهود الفراعنة ، وكذلك ظل شأنه على القرون . ولعل بساطة عقيدته ، مع تغير الأديان التى دان بها ، كانت ذات أثر فى تمسكه بمذهبه : فهو موحِّد من أقدم العصور ، وهو على توحيده يشعر بأن الإله الخالق المنعم جل شأنه أعظم من أن يسمو سواد الناس إلى الاتصال بذاته وإن تطهَّرت قلوبهم ، فلا بدَّ من زُلْفَى تقرِّبهم إليه ، وتحِلّهم منه محل الرضا .

لكن هذا التوجه الدينى لم يكن وحده هو الذى دفع المصريين ليقاوموا فى سبيل مذهبهم ماقاوموا سنى الاضطهاد الأعظم ؛ فقد دانوا بالمسيحية بعد وثنيتهم الفرعونية . ثم كان لهم فى فقه مذهبهم القبطى بحوث تبحَّر رجال الدين فيها ماتبحَّر أسلافهم فى العهود الفرعونية فى فقه مذهبهم . ثم دانوا بعد ذلك بالإسلام ، فكان الفقه الإسلامى موضع عنايتهم به وتبحرَهم فيه . ولم يُحْمَلوا على المسيحية وعلى الإسلام بالاضطهاد والإكراه ، بل دعوا إليهما بالحجة فرأوا الخير فى قبولهما فقبلوهما . فما لهم نفروا من مذهب هِرَقْل الرسمى لأول ماعرض عليهم بل أبوا أن ينظروا فيه ؟ ثم ما لهم قاوموه من بعدُ هذه المقاومة التى اضطرت قيرس إلى اضطهادهم وفتنتهم على النحو البشع الذى رأيناه ؟ .

لاريب أنه كان للعامل السياسى فى هذا الأمر أثر عظيم، فقد ضاق الشعب المصرى بحكم الرومان ضيقاً أثاره برومية ثم بيزنطية ثورات عنيفة غير مرة. وهو لم يكن أقل ضيقاً بهذا الحكم قبل تغلب الفرس على فوكاس واستئثارهم بأرض مصر ولا بعد تغلب هرقل على الفرس وإجلائهم عن مصر. فقد كان حكم فوكاس حكم بطش وإرهاق ثارت مصر به فآزرت هرقل فى ثورته على القيصر الطاغية. وقد شعر المصريون فى السنوات العشر التى استقر الفرس فيها بينهم بحرية لم يكن لهم بمثلها فى عهد فوكاس عهد. ذلك أن الفرس تركوا لهم أمر الحكم على نحو من اللامركزية المألوفة فى بلادهم، وأعفوهم من كثير من الأعباء التى كانت تُرهقهم، وإن أقاموا بينهم سادة متعالين. فلما انتصر هرقل على الفرس، واستردّ مصر، فرح المصريون لأنهم مسيحيون مثله، ولأنهم طمعوا فى أن يذكر لهم يدهم عنده أيام ثورته بفوكاس، وعظم رجاؤهم ألا يُرهقهم حكمه. لكنهم سرعان ما رأوا الحكم الروماني القديم عاد كما كان، ورأوه شرًّا من حكم الفرس بمراحل. لم يكتف صاحب السلطان من قبَل قيصر بأن يأخذ منهم غلاّتهم ومصنوعاتهم ليرسلها إلى بيزنطية مقابل الضرائب المفروضة عليهم، بل اعتبرت الأرض ملكاً تُفرض على أصحابها جزية، وإن شئت فقل تكليفاً، يدفعونها أجراً للأرض التى يزرعونها. وربما احتمل الناس الضريبة والجزية بشىء من الصبر أيام الرخاء. لكن مصر عادت إلى هرقل فى سنى شدة وبأساء. فقد انتهى الاضطراب فى عهد فوكاس إلى تعطيل القناة التى كانت تصل البحر الأحمر بالنيل فالبحر الأبيض، ثم لم يُعدْها الفرس ولم يعدها عمال هرقل، فتدهورت التجارة تدهوراً أفلس بسببه كثير من اليهود واليونان المشتغلين فى أسواق الإسكندرية وتدهورت أسعار الحاصلات والمصنوعات فى داخل البلاد تدهوراً أدّى إلى أزمة انزعج لها الناس أيما انزعاج. وما قيمة صناعة الزجاج أو صناعة المنسوجات أو صناعة الورق من البَرْدِىّ أو غيرها من الصناعات المصرية التى كانت زاهرة فى مصر السفلى وفى مصر الوسطى، إذا لم تجد أسواقاً فى الخارج لتصريفها، واقتصر أمرها على أن تؤخذ جزية لقيصر! لذا كَره الناس حكم الروم، وودّوا لو استطاعت مصر أن تتخلص منه وأن تستقل بنفسها. لكن الروم كانوا قد حرموا على مصر صناعة الأسلحة واستعمالها، وكانت الطبقة المستنيرة من المصريين الموظفين فى الدولة قد ذلّت لوظائفها. فلم يكن بدٌّ من التذرّع بوسيلة ينفّس بها الشعب عن نفسه. وذلك بأن ينزع للثورة. وسرعان ما جاء قيرس بالمذهب المسيحى الجديد يحاول

فرضه على مصر حتى هبَّ رجال الدين فى وجهه يلعنونه . بذلك فتحوا للشعب باباً يُروى ظمأه للانتقاض ، فكان الاضطهاد الأعظم الذى رأيت ، والذى زاد المصريين كراهية لقيصر ولقيرس ولحكمهما ولمذهبهما الجديد .

لم يكن علم ذلك كله ليخفى على أمير المؤمنين ولا على المستنيرين حوله من المسلمين . فقد دام الاضطهاد والتعذيب فى مصر عشر سنوات ، بدأت قبيل وفاة النبيّ واستمرت طيلة خلافة الصدِّيق ، وظلّت متصلة فى عهد عمر إلى أن دخل العرب مصر . وفى هذه السنوات العشر كان المصريون والعرب يتبادلون التجارة كما كانوا يفعلون من قبل ، فكانت أنباء العرب البارزة تبلغ المصريين ، وكانت أنباء المصريين البارزة تبلغ العرب . وزاد العرب علماً بأنباء مصر متاخمتهم لها بالشام . ولاجرم قد كان عمرو بن العاص من أكثر الناس بها علماً ؛ إذ كان بفِلَسْطِين ، أدنى الأرض من ميدان الاضطهاد والتعذيب ، ومن ثورة المصريين بقيصر وبعمّاله . لذلك لم يغب عنه أن شعب مصر المضطهد لن تأخذ منه الحماسة فيعاون الروم إذا قاتلهم العرب فى أرض مصر ، وإن أيقن أن هذا الشعب لن يقاتل الروم فى صف العرب من خشية أن تدور على العرب الدائرة ، ولأنه ليس بينه وبين العرب صلة تثير الحماسة فى قلبه ، فهو ليس من جنسهم ، وليست لغته لغتهم ولا عقيدته عقيدتهم .

وزاد ابن العاص اقتناعاً بما ظنه من فتور المصريين عن نصرة الروم ما كان الناس فى مصر وفى غير مصر يعرفونه يومئذ عن سياسة المسلمين ، وأنها كانت تدع الناس أحراراً فى دينهم ، لاتحاول صرفهم عنه أو حملهم على تغييره ، فمَنِ اهْتَدى فَإِنَّما يَهْتَدِى لِنَفْسِهِ ، ومن استمسك بدينه ورضى الجزية فله ما اختار . أما وقد كان الاضطهاد الديني دعامة الثورة بالروم ، ثورة تتلظى بها نفوس المصريين جميعاً ، فلا عجب أن يلقوا تسامح المسلمين الدينى بالغبطة ، وأن يقفوا من قتالهم الروم موقف المتفرج : لايُغْضِبون الروم بمظاهرة المسلمين عليهم ، ولا تدفعهم لقتال المسلمين حماسة لعقيدة مشتركة بينهم وبين حكامهم ، أو طمأنينة إلى عدل يسوى بينهم وبين هؤلاء الحكام .

لقى ابن العاص أمير المؤمنين حين جاء إلى الشام بعد طاعون عَمَواس ، وسار معه من الجابية فى أرجاء فلسطين وسورية ، وجعل يعيد على سمعه ما كان قد فاتحه فيه من أمر مصر ، ويذكر له ماسبق إلى ذكره من حجج تؤيد رأيه ، ويدلى إليه بحجج جديدة ، حين انتهى عمر إلى الاقتناع برأيه ، وإن استمهله فى تنفيذه حتى يكتب إليه من

المدينة بعد عوده إليها .

وزاد عمرَ ميلاً إلى الاقتناع بهذا الرأى ما يعرفه من جرأة ابن العاص فى الحرب ، ودهائه فى السياسة ، واقتداره لذلك على أن يسير بإذن الله فى ذلك الفتح سيراً موفقاً . وقد دلّت الحوادث على أن أمير المؤمنين لم يخطئ فى تقديره ، وأن شخصية عمرو وما اجتمع فيها من الدهاء والإقدام قد جعلته الرجل المختار فى فتح مصر. فلم تكن جرأته فى الحرب جرأة مغامرة كجرأة خالد بن الوليد . بل كانت جرأة الداهية الذى يرى النجاح فى المكث أكثر مما يراه فى الحث ، ويرى المطاولة والصبر حتى تحين فرصة الإقدام ، وحين يثق بأن النجاح حليف هذا الإقدام . هذا إلى أن دهاءه كان يجنّبه إثارة غير المحاربين به ، فكان يؤْثِر ملاينتهم فى حزم على البطش بهم إلا أن يُضْطَر إلى البطش اضطراراً فإذا اضطر إليه لم يتردد دونه ، على ألا يتجاوز به قدر الحاجة إليه . ثم إنه كان أكثر أمراء الجند إيماناً بأن الحرب خُدْعَة ، فليس للمعايير المعروفة للفضل والنبل وزن فى أثنائها . قائدٌ ذلك شأنه جديرٌ بتوفيق الله إذا سار لفتح مصر .

وكان عمرو بن العاص فى العقد الخامس من عمره ، أو كان قد تجاوزه ، حين فكر فى فتح مصر(١). وكان قصير القامة ، عظيم الهامة ، ناتئ الجبهة له عينان سوداوان ثاقبتان تنمان عما يتأثر به فى حالى سروره وغضبه ، يعلوهما حاجبان غزيران ، ومن دون ذلك فم واسع ولحية عظيمة ترسم من حولهما سيما البِشْر والأنس . وكان عريض الصدر ، بعيد ما بين المنكبين ، عظيم الكفين والقدمين ؛ لذلك كان مظهره ينم عن القوة فى غير شدة . وكان فارساً متفوقاً فى فنون الفروسية والضرب بالسيف ، قوى البنية مَرِن الأعضاء ، مرونة وقوة عوّدتاه احتمال المشقّات . وكان إلى ذلك راجح العقل ، كثير الأناة واسع الحيلة ، فصيح اللسان مفتنًّا فى أساليب الكلام . لذلك بعثت به قريش

---

(١) المتفق عليه أن عمراً توفى يوم الفطر من السنة الثالثة والأربعين للهجرة (٦ يناير سنة ٦٦٤) وإنما اختلف فى سنه حين وفاته ؛ أكانت تسعين سنة . ويرى بتلر أنه كان ابن سبعين ، فكان فى الخامسة والأربعين حين سار إلى مصر . ويروى الذين يخالفون بتلر أن ابن العاص عاش إلى التسعين . ويؤيدون رأيهم بأن سفارته إلى النجاشى لرد المسلمين الذين هاجروا إلى الحبشة كانت قبل هجرة الرسول بأربعة أعوام . فلو أنه توفى فى السبعين أو الثالثة والسبعين لكانت سنه حين هذه السفارة بين الثالثة والعشرين والسادسة والعشرين ، وهى سن لا يوفد صاحبها سفيراً لملك . أما بتلر فيؤيد رأيه بأن عمرا شهد صفين عام ٦٥٨ وأبلى بلاء عظيماً ، وأظهر فيها المدهش من الرأى والعمل فلو أنه توفى فى التسعين لكانت سنه يوم صفين اثنتين وثمانين ، وهى سن تقعد بصاحبها ، فى رأى بتلر عن مثل ما ينسب إلى ابن العاص فى هذه الموقعة .

إلى الحبشة أول ماهاجر المسلمون إليها ليحمل النجاشي بقوة حجته على ردهم إلى مكة . وقد أبدى من حسن الحيلة فى محاولته ما يشهد بمقدرته . وإن لم يوفّق لتحقيق الغاية من سِفارته .

وقد هداه رجحان عقله من بُعد إلى الإسلام . ذلك أنه رأى رسول الله هاجر إلى المدينة ، ورأى كلمته تعلو بين العرب ، فساوره الشك فى مقدرة قريش على النيل منه فآثر أن ينصرف إلى تجارته ينمّيها ، وعاد سيرته الأولى يسافر فى هذه التجارة إلى الشام واليمن والحبشة ومصر . فلما كانت غزوة الأحزاب واشترك مع أهل مكة فيها فآبت قريش بالهزيمة ، أيقن أن قريشاً لم يبق لها بمحمد قِبَلٌ . عند ذلك جمع رجالا من قريش وقال لهم : « والله إنى أرى أمر محمد يعلو الأمور علواً منكراً . وإنى قد رأيت أن نلحق بالنجاشي فنكون عنده . فإن ظهر محمد على قومنا كنا عند النجاشي ، فإنا أن نكون تحت يديه أحب إلينا من أن نكون تحت يدى محمد ؛ وإن ظهر قومنا فنحن من قد عرفوا ، فلن يأتينا منهم إلا خير » . وأقر سامعوه رأيه وساروا معه إلى الحبشة وقد قرّ رأيهم على المُقام بها حتى ينتهى مابين قريش ومحمد إلى وضع ثابت . فلما عقد محمد عهد الحُدَيْبية مع قريش فتهادنا عشر سنين ، واتفقا على ألا يدخل محمد مكة عام العهد وأن يدخلها للعمرة العام الذى يليه ، أيقن عمرو أن أمر محمد يزداد علوًّا ، وأن مُقامه بالحبشة سيطول . فلما استدار العام ، وعرف أنباء عُمْرة القضاء وما كان من دخول المسلمين مكة وطوافهم بالكعبة وسعيهم بين الصفا والمروة ، أيقن أن محمداً على الحق ، فخرج إلى مكة فلقى خالد بن الوليد متأهباً للسير إلى المدينة ليسلم . فذهب الرجلان فأسلم ابن الوليد وبايع . ودنا ابن العاص من محمد فقال : « يارسول الله ! إني أبايعك على أن يُغفر لى ما تقدم من ذنبى ، ولا أذكر ماتأخر » . وأجابه محمد : « ياعمرو بايع ، فإن الإسلام يَجُبُّ ما كان قبله ، وإن الهجرة تَجُبُّ ما كان قبلها » فبايع عمرو وانصرف .

تُرى هل اندفع عمرو إلى الإسلام بعد ما أيقن أن محمداً منتصر على قريش لامحالة فآثر أن يسبق قومه إلى صف المنتصر ؛ أم أنه تدبّر رسالة محمد حين طال مُقامه بالحبشة فآمن بها فدعاه إيمانه إلى أن يُسلم ؟ روى أن فتى من قريش ذهب إليه فقال له : يا أبا عبد الله ! إن القوم قد ظنوا بك الميل إلى محمد ؛ فواعده عمرو ميقاتَ الظل من جبل حراء ، فلما التقيا سأل عمرو الفتى : أنشدك الله ، أنحن

أهدى أم فارس والروم ؟ وأجابه الفتى فى غير تردد : بل نحن . فاستطرد عمرو : فما ينفعنا فضلنا عليهم فى الهدى إن لم تكن لنا هذه الدنيا وهم فيها أكثر أمراً ! . قد وقع فى نفسى أن ما يقول محمد من البعث حق ليُجْزى المحسن فى الأخرى بإحسانه والمسىء بإساءته .

ولئن صحت هذه الرواية لتكونن بالغة فى الدلالة على اتجاه عمرو فى تفكيره ، وعلى أنه كان يؤمن بنظرية المنفعة إيماناً قويًّا . فهو قد أنكر على محمد مع قومه ، فلما ذهبت ريح قريش راجع نفسه ونظر فى أمر النبىّ وفيما يدعو إليه من الإيمان بالله إيماناً يدخل صاحبه الجنة ، وقد يجعل له هذه الدنيا ، فبادر إلى الإسلام عن بينة وإيمان ، لا عن خوف ولا عن إذعان ؛ وذلك قد يفسر ما روى عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : « أسلم الناسِ وآمنُ الناس عمرو بن العاص » .

وأسرع عمرو إلى كسب ثقة النبىّ حتى لقد كان يقول : « ماعدل بي رسول الله صلى الله عليه وسلم وبخالد بن الوليد أحداً من أصحابه فى حربه منذ أسلمنا » . ولا عجب أن تعظم ثقة رسول الله بالرجلين وقد عرفهما بمكة ، وعرف مكانهما من قومهما ، ورأى موقفهما فى خصومته حين الغزوات التى كانت بينه وبين قريش وخبر بأسهما . ثم إنه عرف من دهاء عمرو وحزمه ما زاده ثقةً به . كان عمرو على إمارة المسلمين فى غزاة ذات السلاسل فى الشمال من أرض الحجاز ، فلما انتصر على القبائل من أعدائه أبى على أصحابه أن يتعقَبوهم ! وأمر الجند ألا يوقدوا ناراً يصطلون عليها ، وتوعَّد المخالف أن يلقيه فيما يوقد . وعاد إلى المدينة ، فشكا أصحابه ، فسأله رسول الله فى الأمر ، فكان جوابه كرهت أن آذن لهم أن يُوقدوا ناراً فيرى عدوُّهم قِلّتهم ، وكرهت أن يتبعوهم فيكون للعدو مدد » .

عظمت ثقة النبى بعمرو على حداثة عهده بالإسلام ، فكان فيمن بعثهم رسلا للملوك والأمراء يدعونهم لدين الله . بعثه إلى عُمان على الخليج الفارسىّ يدعو أميريها جيفراً وعبَّاداً ابنى الجُلَنْدَى للدخول فى الإسلام . وكانت عُمَان فى ذلك العهد خاضعة لنفوذ فارس . مع ذلك لم يتردَّد عمرو فى الذهاب إليها وأداء الرسالة التى عهد النبى إليه فى أدائها . وقد تحدَّث إلى عبَّاد فجعل يُقنعه بالحجة تارة ، ويَعِده تارة ، ويتوعده وأخاه تارة ، ويذكر له أن رسول الله يقم جيفراً إذا أسلم أميراً على عُمان ، كما أقام باذان من قبله أميراً على اليمن ، وعند ذلك يأخذ جيفر الصدقات من أغنياء عمان

ليردَّها على فقرائها . وأقام الأخوان أياماً يتشاوران . ورأى جيفر أمر المسلمين يعظُم . وخشى ما توعَّدهم به عمرو أن يوطئ محمد خيلَه أرضهم ، فدخل فى الإسلام وبقى أميراً على عُمان . وأقام ابن العاص إلى جانبه يبثُّ الدعوة لدين الله ويفقِّه الناس فيه . وظل كذلك حتى قُبض رسول الله وتولّى أبو بكر خلافة المسلمين . فلما فشت الرِّدَّة فى العرب عاد عمرو إلى المدينة يتلقى أوامر أبي بكر فى مقاومة المرتدين .

هذه المقدرة التى أبداها عمرو فى السياسة وفى الحرب جعلته شديد الاعتداد بنفسه ، ولوعاً بالإمارة ، حتى لا يرضى أن يتأمَّر عليه أحد إلا كارهاً . لما أرسله النبي إلى شمال الحجاز يقاتل القبائل فى ذات السلاسل ، خاف هو أن يدهمه العدوّ بجند عظيم ، فاستمد النبيّ فبعث إليه أبا عبيدة بن الجراح فى المهاجرين الأولين ومنهم أبو بكر وعمر ، وقال لأبي عبيدة حين وجَّهه : « لا تختلفا » . وحان وقت الصلاة وأراد أبو عبيدة أن يؤمَّ الناس فأبى عليه عمرو وقال : إنما جئت مدداً لى . قال أبو عبيدة : لا ! ولكنى على ما أنا عليه وأنت على ما أنت عليه . وأجابه عمرو : بل أنت مددٌ لى . فقال أبو عبيدة : ياعمرو ! إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لى : لا تختلفا ، وإنك إن عصيتنى أطعتك . قال عمرو : فإنى الأمير عليك وأنت مدد لى . قال أبو عبيدة : فدونك ؛ وصلى عمرو بالناس .

هذا الحديث بين الرجلين يكشف عن جانب من نفس عمرو ، ويشهد بحبه الإمارة حبًّا مَلك عليه نفسه . فلأبى عبيدة سابقة فى الإسلام ليست لعمرو بن العاص ، بل ليست لعمر بن الخطاب . وأبو عبيـــدة أمين الأمة على لسان رسـول الله ، وقد أمَّره رسول الله فى هذا المدد على أبي بكر وعمر . مع ذلك أصرَّ عمرو على أنه جاء مدداً له ، ويجب لذلك أن يكون مرءوساً له . وكان أبو عبيدة رجلا ليِّناً سهلا هيناً عليه أمر الدنيا ، وكان إلى ذلك يؤمن بأمر رسول الله الإيمان كله ، فلما رأى تشبث عمرو بالإمارة نزل على إرادته وقاتل مرءوساً له .

وكان عمرو أميراً على اللواء الذى بعثه أبو بكر فى قتال المرتدين بقُضَاعة ، فلما قضى على رِدَّتهم ، وقُضِى على الردة فى بلاد العرب كلها ، وعزم الصدِّيق فتح الشام ، وأرسل إليـه الجيوش على أحدها أبو عبيدة وعلى آخر عمـرو بن العاص ، وجعـل لأبى عبيدة القيادة العامة إذا اجتمعت جيوش المسلمين بالشام فى غزاة – توجَّه ابن العاص إلى عمر بن الخطاب وسأله أن يكلم أبا بكر ليجعله أميراً على المسلمين بالشام ، فقال

له عمر : « لا أكْذبك ، ماكنت لأكلمه في ذلك أبداً ، وأبو عبيدة أفضل منزلةً عندنا منك » . وألح ابن العاص يقول : « إنه لاينقص أبا عبيدة شيئاً من فضله أن ألِيَ عليه » . فكان جواب ابن الخطاب على إلحاحه : « ويحك ياعمرو ! إنك لتحبّ الإمارة ! والله ما تطلب بهذه الرياسة إلا شرف الدنيا ، فاتق الله ياعمرو ولا تفعل بشيء من سعيك إلا وجه الله . فاخرُجْ إلى هذا الجيش ، فإنك إن لم تكن أميراً هذه المرة فما أسرع ما تكون إن شاء الله أميراً ليس فوقك أحد » . وخرج ابن العاص مذعناً لإمارة أبي عبيدة لاعن رضا . لكن إذعانه لم ينقص من قدره عند أبي عبيدة ولا عند غيره من أمراء الجند ، بل كانوا جميعاً يعرفون له ذكاءه ودهاءه ورجحان عقله وبُعْد نظره ، وكانوا لذلك يلتمسون عنده الرأى كلما حزب الأمر ، فيجدون فى مشورته خير مايدفع الخطر ، ويضيء السبيل إلى الظفر .

ولعل حبه الإمارة وحرصه عليها لم يكن مرجعهما إلى اعتداده بنفسه وكفى ، بل كانا يرجعان كذلك إلى حسبه ونسبه ومكانه من قريش ؛ فقد كان من قبيلة بنى سَهْم القرشية صاحبة الرياسة على الأموال الخاصة بآلهة قريش ، فكان زعيمها يتصرَّف فى هذه الأوقاف بما تقضى به سنَّة القوم لذلك العهد . وكان أبناؤها لذلك يحسنون القيام على الأموال إحساناً ظهرت آثاره فى مقدرة عمرو بن العاص على جمع المال وتثميره ، سواء فى حياته الخاصة أوفيما تولاه من المناصب العامة . وقد كان لبنى سهم إلى ذلك منصب الفصل فى المنازعات ، وهومنصِبٌ أفاد أفرادُها منه حسن الرأى والأناة ودقة التقدير . لهذا ولذلك زاد ثراء بنى سهم وارتفعت مكانتها ، واجتمعت لها أسباب القوة ، فاستطاعت أن تجير قبيلة بنى عدىّ قوم عمر بن الخطاب حين أجلاها بنو عبد شمس عن منازلها القائمة عند الصفا ، كما استطاع العاص بن وائل السهمى أبو عمرو أن يجير عمر بن الخطاب حين أعلن فى الناس إسلامه فأراد بنو سهم قتله . وكان العاص بن وائل وافر الثراء ، حتى كان يلبس الديباج مُزَرَّراً بالذهب . لا عجب ، وذلك نسب عمرو وتلك قبيلته ، أن يزداد اعتزازاً بنفسه وأن يطمع إلى الإمارة ويحرص عليها .

وجعله حبه الرياسة يتوسم سيماها فى غيره . سمع وهوبالمدينة يوماً خطبة من خطب زياد فأعجب ببلاغتها وقال : « لله دَر هذا الغلام ! لو كان من قريش لساق العرب بعصاه » . وهذا الطموح إلى الإمارة هو الذى دعاه لمناصرة معاوية على علىّ ، فقد

رأى المسلمين لذلك العهد مقبلين على الدنيا راغبين عما يدعو علىّ له من التقشف والزهد ، ورأى معاوية يتألفهم بالمثوبة والعطاء ، ويظهرلهم المحبة والود ، فأيقن أن الدنيا مقبلة عليه مدبرة عن علىّ . لكنه ، فيما يرى ، لم يُخفِ على معاوية رأيه الحق فى أمره ، والمطامع التى دفعته إلى مناصرته . سمع معاوية يوماً يُكثر من الحديث فى رغبته عن الدنيا وعن إمارة المؤمنين لولا حرصه على خير المسلمين ، فغَصَّ عمرو بما سمع من ذلك ، فلما خلا إليه قال له : « يامعاوية أحرقت قلبي بقصصك ! أترى أننا خالفنا عليًّا لفضل منّا عليه ؟ لا والله ! إن هى إلا الدنيا نتكالب عليها . وأيمُ الله لتقطعنّ لى قطعةً من دنياك أولأنابذنّك ! » .

لم يكن تطلع عمرو للإمارة وحبه المال وإقباله على الدنيا ليصرفه عن التفقّه فى الدين والعلم بكلام الله ، فكان من أكثر المسلمين علماً به وفقهاً فيه ، كما كان من أغزر العرب ثقافة وأكثرهم علماً بمعارف عصره . ثم إنه كان كريم النفس رضىّ الخلق ، رقيق القلب ، ذوّاقاً للجمال ، يطرب للشعر ، ويُقبل على الغناء ويحبه حبًّا جمًّا . وقد ملك بصفاته هذه أفئدة الناس ، كما فرض ذكاؤه عليهم احترامه . وكان جَوّابَ آفاق كبنى قومه . وجَوْبُه الآفاق فى تجارته وفى سِفارته هو الذى ذهب به إلى اليمن وإلى الحبشة وإلى الشام ومصر . ولسنا نشك فى أنه تردد على مصر غير مرة ، وإن ذهب بعض المؤرخين إلى أنه لم يذهب إليها إلا مرة واحدة هى التى دفعته فى ظنهم إلى التفكير فى فتحها .

وقصة ذهابه إلى مصر هذه المرة الواحدة طريفة فى روايتهم ، طرافة تدعونا لذكرها وإن رأيناها أدنى إلى الأساطير . فقد زعموا أن عمراً قدم بيت المَقْدس لتجارته فى نفر من قريش ، وإن شماساً روميًّا من أهل الإسكندرية جاء بيت المقدس حاجًّا وكان نازلاً من الجبال ، فمر بعمرو وهو يرعى إبله وإبل أصحابه . وكان الشمَّاس قد أجهده العطش لشدة الحر فى ذلك اليوم ، فاستسقى عمراً فسقاه حتى رَوِى . ثم إن الشمَّاس نام مكانه إلى جانب حفرة خرجت منها حية عظيمة بَصُر بها عمرو فنزع لها بسهم فقتلها . واستيقظ الشماس ورأى الحية ، وقص عليه عمرو نبأها ، فأقبل الشَّماس فقبل رأس عمرو وقال له : قد أحياني الله بك مرتين ، مرة من شدة العطش ، ومرة من هذه الحية ؛ فما أقدمك هذه البلاد ؟ وذكر له عمرو أنه جاء فى تجارته ، وأنه يرجو أن يصيب مايشترى به بعيراً ، وعرف الشمّاس أن دية الرجل فى العرب مائة من الإبل قيمتها ألف دينار ، فقال لعمرو : هل لك أن تتبعنى إلى بلادى ولك عهد الله

وميثاقه أن أعطيك ديتين ؛ فإن الله عزوجل أحياني بك مرتين . وعرف عمرو أن الشماس من الإسكندرية ، وأنها بلد لم يدخل قط مثلها ، فاستشار أصحابه واستصحب أحدهم يأنس به ، وسار مع الشمّاس حتى بلغوا الإسكندرية ، فرأى عمرو من عمارتها وجودة بنائها وكثرة أهلها وما بها من الأموال ، فأعجب بها وقال : مارأيت مثل مصر قط وكثرة ما فيها من الأموال . ووافق دخول عمرو الإسكندرية عيداً فيها عظيماً يجتمع له الأمراء والأشراف وأهل المدينة ، فألبس الشمّاس عمراً ثوباً من ديباج وذهب به إلى هذا العيد . وكان الملوك والأمراء يترامون فى هذا العيد بكُرة لهم من ذهب مكللة ، فمن وقعت الكرة فى كمه واستقرت به لم يمت حتى يملكهم . وإنهم ليترامون بالكرة فى ذلك اليوم إذ أقبلت تهوى حتى وقعت فى كم عمرو بن العاص . وعجِب الناس لذلك وقالوا : ماكذبتنا هذه الكرة قط إلا هذه المرة . أترى هذا الأعرابي يملكنا ! هذا مالا يكون أبداً ! . ثم إن الشمَّاس جمع لعمرو ألفى دينار من أهل الإسكندرية ودفعها له ، وبعث معه دليلا ردّه هو وصاحبه إلى بيت المقدس . يقول ابن عبد الحكم : « فبذلك عرف عمرو مدخل مصر ومخرجها ، ورأى منها ما علم أنها أفضل البلاد وأكثرها مالا » .

أحسب القارئ يوافقنى على أن هذه القصة مع طرافتها أدني إلى الأساطير ، وأنها لايمكن بحال أن تكون سبب التفكير فى فتح مصر . ولعل رواية الرواة لها هى التى جعلت البلاذُرِىّ والمقريزى وابن عبد الحكم وغيرهم من المؤرخين يروون ما قيل من أن عمرو ابن العاص سار إلى فتح مصر من تلقاء نفسه فى ثلاثة آلاف وخمسمائة جندى وأن عمر غضب لذلك وكتب إليه يوبِّخه ويعنِّفه على افتتانه برأيه . وهذا القول لا يزيد عندنا على أنه حديث خرافة . فلو أن عمراً سار إلى غزو مصر من تلقاء نفسه لكان أيسر جزائه عند عمر أن يعزله . وإنما دعا للتفكير فى فتح مصر ما سقناه مما أدى بعمر إلى الميــل لمشاركة ابن العاص فى رأيه . مع ذلك استمهله حتى يكتب إليه بعد عوده إلى المدينة ، فلما نزلها جمع أولى الرأى فيها وذكر لهم حجج عمرو وشاورهم فى الأمر فانقسم رأيهم . وإذ كان عمر يرى الفتح ، فقد كتب إلى عمرو يأمره بالشخوص إلى مصر ، وبعث بالكتاب مع شريك بن عَبْدَة ، وفيه يقول : « انْدِب الناس إلى السير معك إلى مصر ، فَمنْ خفَّ معك فسِرْبه » . وكان عمرو محاصراً قَيْسارية حين جاءه كتاب أمير المؤمنين ، فاستخلف معاوية بن أبي سفيان على حصارها ، وفَصَل فى قوة

صغيرة اختلف أكانت ثلاثة آلاف وخمسمائة أم أربعة آلاف ، ثم إنه ردّ شريك بن عبدة رسول الخليفة يطلب المدد حتى لاتضعف مسالح الشام . وسار متمهلا بساحل البحر ، جاعلا وجهته إلى العريش ، آملا أن يلحقه المدد حتى يدخل أرض مصر. وإنه لفى مسيرته وتمهُّله إذ جاء النبأ بأن الذين يرون فى فتح مصرخطراً على المملكة الناشئة وفى مقدمتهم عثمان بن عفان ، قد ازداد نشاطهم بالمدينة ، فخشى أن يُضْطَرّ عمر آخر الأمر إلى النزول على رأيهم فلا يبعث إليه بمدد بل يردّه عن مسيرته .

ولم يخطئ عمرو فى تقديره ؛ فقد كان عثمان والذين معه يرون تلك الغزاة عظيمة الخطر ولا يفتئون يكررون ذلك على مسامع عمر . بل لقد زاد عثمان فقال : « يا أمير المؤمنين ، إن عمراً لَمُجَرّأٌ وفيه إقدام وحب للإمارة ، فأخشى أن يخرج من غير ثقة ولا جماعة فيعرّض المسلمين للهلكة رجاء فرصة لا يدرى تكون أم لا » . تُرى ماذا يفعل عمرو وقد سمع ما سمع ؟ أيردّ قائده عن السير بعد أن أمره به ، وبعد أن مال إلى رأيه ؟ وإن فعل وكان ابن العاص قد تخطى حدود مصر ، أفلا يكون ارتداده خذلاناً للمسلمين قد يُجَرِّئ عليهم عدوّهم ! ؟ لكنه خشى كذلك أن تثور ثائرة عثمان والذين معه ، إن أعرض عن رأيهم ولم يظهر الرضا عما يقولونه . ثم إن مخاوفهم قد تبطل إذا هو أمدّ عمراً بقوّات تجعل ظفره بجيوش الروم فى مصر أمراً محققاً ! لذلك كتب إلى عمرو يقول : « إن أدركك كتابي قبل أن تدخل مصر فارجع إلى موضعك ، وإن كنت قد دخلت فامضِ لوجهك واعلم أني مُمِدّك » . ودفع بالكتاب إلى رسول يحمله إلى القائد السائر إلى مصر .

أدرك الرسول عمراً وهو برفَح ، فلم يذكر له شيئاً عن المدد الذى كان ينتظره ، بل حاول أن يدفع إليه كتاب الخليفة . وذكر عمرو نشاط عثمان والذين يتهيبون الإقدام على هذا الفتح ، وقدّر أن الكتاب قد ينطوى على أمر بالعدول عنه ، فأخذ يستدرج الرسول وهو يسايره وجعل يسأله عن المدينة وأنبائها ، وظل على ذلك حتى نزلوا قرية بين رفح والعريش . وسأل عمرو عن هذه القرية من أى أرض هى ؟ فقيل إنها أرض مصر ، فنزلها ونزل الرسول معه ودفع إليه الكتاب . فلما قرأه ابن العاص قال لمن حوله : « إن أمير المؤمنين عهد إلىّ وأمرنى إن لحقنى كتابه ولم أدخل أرض مصر أن أرجع ، ولم يلحقنى كتابه حتى دخلنا أرض مصر ، فسيروا على بركة الله وعونه » . كذلك قال ، فكانت كلماته

هذه أول الفتح(١) .

وإنما دفع عمرو رجاله للسير فى أرض مصر لأنه خشى إن هو أقام بالقرية التى نزلها حتى يجيئه المدد أن يزداد عثمان بن عفّان والذين يرون رأيه نشاطاً ، فيحبس الخليفة المدد عنه ثم يردّه إلى أرض فلسطين ، فتفوت المسلمين بذلك فرصة يؤمن ابن العاص بقدرته على انتهازها . فقد كان يرى الروم بمصر أشد عجزاً عن القتال منهم بالشام . ومصر أكثر الأرض أموالا ، فإذا فتحت كانت قوة للمسلمين ليس كمثلها قوة .

وسار عمرو فى أربعة الآلاف الذين معه إلى العريش ، فألفوها خلاء ليس بها للروم قوة . وشد ذلك من عزم عمرو ودفعه لمتابعة سيره . ورجع رسول الخليفة إلى المدينة وذكر له أن عمراً دخل أرض مصر وسار يطلب الروم فيها ، فلن يرتد عنها إلا إذا اضطرته الهزيمة إلى الارتداد . عند ذلك لم يبق فى وسع الذين رأوا فى إقدامه مخاطرة تعرِّض المسلمين للخطر إلا أن يمسكوا حتى يتبين لهم أمره ، فإما خُذِل فكان خذلانه دليلا على حسن رأيهم وبعد نظرهم ، وإما ظفر فكانوا أول المُعْجَبين به والمهنئين له !

وقد كتب القدر لعمرو أن يكون الظفر نصيبه ، وأراد الله أن تدخل مصر فى حمى الإسلام ، وأن تصبح الدرّة الغالية فى تاج الإمبراطورية الإسلامية .

---

(١) هذه هى الرواية المتواترة عن كتابى أمير المؤمنين إلى عمرو بن العاص ، يأمره فى أولهما بالسير إلى مصر ، ويرده فى الثانى عن هذا السير إلا أن يكون قد دخل أرض مصر . وثم روايات أخرى أوردها ابن عبد الحكم وغيره من المؤرخين تختلف بعض الاختلاف عن هذه الرواية المتواترة . منها أن عمر ظل على تردده فى أمر الفتح وتخوفه منه . وأصحاب هذه الرواية يوردون كتابه إلى عمرو بالنص الآتى : « سر وأنا مستخير الله فى مسيرك . وسيأتيك كتابى سريعاً إن شاء الله تعالى ، فإن أدركك كتابى آمرك فيه بالانصراف عن مصر قبل أن تدخلها أو شيئاً من أرضها فانصرف ، وإن أنت دخلتها قبل أن يأتيك كتابى فامض لوجهك واستعن بالله واستنصره » . ولانظن عمر يأمر بالسير إلى فتح عظيم كفتح مصر قبل أن يقتنع بصوابه والقدرة عليه ، وقبل أن يزول كل ماقد يقوم بنفسه من تردد فى أمره . ومن هذه الروايات أن عمراً كان على جنده بقيسارية حين كان عمر بالجابية ، فكتب سراً إلى عمر فاستأذنه إلى مصر وأمر أصحابه فتنحوا ثم سار بهم ليلا ، فلما عرف أمراء الأجناد صنيعه أنكروه ورفعوا أمره إلى أمير المؤمنين ، فكتب إليه : « إلى العاصى بن العاصى . أما بعد ، فإنك قد غررت بمن معك ، فإن أدركك كتابى ولم تدخل مصر فارجع ، وإن أدركك وقد دخلت مصر فامض واعلم أنى ممدك » . ولو صح هذا لكان تحايلا من عمر لايتفق وماعرف من خلقه ومن صراحته فى حمل التبعات .